دَلالةُ (إذا) النَّحويةُ
بينَ الاستعمالِ القرآنيِّ والقولِ النحويِّ

د. عبد الحسن جدوع عبد العبودي
كليةَ الآدب - جامعةَ القادسيةَ

فحوى البحث

بحث نحوي صِرف، بسط فيه السيد الباحث مسألة استعمال القرآن الكريم لـ(اذا) الظرفية الشرطية والفجائية ومدى مسايرة هذا الاستعمال لقواعد النحويين.

وقد بحث عدة مسائل هي:

- الاصل في استعمال (اذا).
- تضمُّنها معنى الشرط.
- العامل فيها ولزوم اضافة ما بعدها اليها.
- (اذا) الفجائية.

وقد ختم البحث بما توصل اليه السيد الباحث من أمور ثم قائمة باهم المصادر.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد...

فإنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ القرآن الكريم هو المعجز الخالد الذي قال فيه سبحانه ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[سورة الاسراء: ٨٨].

ولا شكّ أيضا أنّ الاستعمال القرآني غاية في الدقة، فليس لنا أن نتوهم في لفظة أنها لو تأخرت لكان أحسن، أو لو تقدمت لكان أبلغ، وليس لنا أن نتصوّر في أذهاننا حرفا لو استعمل بدلا من الحرف المستعمل في القرآن لكان أدقّ، وقد ذهب إلى ذلك كل النحويين والبلاغيين، إذ اضطُروا إلى التأويل والتقدير في الآيات التي لا يجدون سبيلا إلى قبولها على ما هي عليه، فقالوا بالحذف والإضمار، ووضع لفظة موضع أخرى، وهكذا...

وممّا جاء في الاستعمال القرآني(إذا)، التي كان يكفي في الدراسة الأولية أن يعبّر عنها الطالب بأنها أداة شرط غير جازمة، وقد اختلفت آراء النحويين فيها، ما دعاني إلى تفصيل القول فيها، ولا أزعم أنني لم أسبق إلى دراستها، بل أزعم أنني لملمت أطرافها وأوجزت الكلام عليها تاركا ما لا جدوى من ذكره. وقد بحثت فيها ما يأتي:

١. الأصل في استعمالها.
٢. تضمنها لمعنى الشرط.
٣. جملة الشرط وجوابه.
٤. العامل فيها.
٥. لزومها الإضافة.
٦. (إذا) الفجائية.

١. الأصل في استعمالها

بين الاستعمال النحوي والنصّ القرآني

الأصل في استعمال (إذا) أن تكون لزمان من أزمنة المستقبل مختصّ من بينها بوقوع حدث فيه مقطوع بوقوعه، أو كثير وقوعه؛ لذا كثر استعمالها في هذا المعنى في القرآن الكريم، لقطع عالِم الغيب والشهادة جل شأنه بالأمور المتوقعة[1]، ومن ذلك قوله

(١) ينظر: المفصل: ١٧١، شرح الرضي على الكافية: ٣/ ١٨٥، شرح المفصل: ٥/ ٤٦.

تعالى﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ [سورة التكوير: ١]، وقوله ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [سورة الانفطار: ١]، وقوله ﴿زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾[سورة الزلزلة: ١]، وللحدث كثير الوقوع مثل قوله تعالى ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾[سورة النساء: ٨٦]، وقوله ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [سورة الاعراف: ٢٠٤]، والمعلوم أنّ التحيّة وقراءة القرآن مقطوع بوقوعهما غالبا.

ولكثرة استعمال (إذا) في المقطوع بوقوعه وكثير الوقوع غلب معها لفظ الماضي[٢].

وكثرة استعمال (إذا) للمستقبل لا تنفي إتيانها بمعنى المضيّ، أو لظرف الحال، فمن ورودها بمعنى المضيّ ما ذكره سبحانه عن ذي القرنين في قوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ [سورة الكهف: ٨٦]، وقوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾ [سورة الكهف: ٩٠].

(٢) البرهان في علوم القران: ٢/ ٣٦٢.

وكذلك تأتي ظرفا للحال في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [سورة الليل: ١ -٢]، وقوله ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾[سورة يونس: ١٢]، وهِيَ فِي هذِهِ الآية دلّت على الحال المستمرة، أي: أن الانسان كلما مسّه الضرّ دعا الله سبحانه، ومثله قوله تعالى ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَا﴾[سورة الروم: ٣٦].

٢. تضمنها معنى الشرط في النصّ القرآني

إنّما جاز تضمن (إذا) معنى الشرط مع أنّها موضوعة للأمر المقطوع بوقوعه؛ لكثرة دخول معنى الشرط فيها، وخروجها عن أصلها من الوقت المعين، وإن لم يكن فيها معنى(إن) الشرطية؛ لكون الشرط مفروضا وجوده، إذ إننا في كثير من الأمور التي نقطع بوقوعها ينكشف لنا الحال على خلاف ما نتوقعه، ولهذا تضمنت (إذا) معنى(إن) الشرطية وجاز دخول (الفاء) في جوابها[٣].

وغالباً مانرى أنّ هناك جملتين بعد(إذا)

(٣) ينظر: شرح الرضي: ٣/ ١٦٨ـ ١٦٩، الجنى الداني: ٣٦٨.

جاءتا على صورة الشرط والجزاء، وإن لم يكونا شرطا وجزاءاً من أجل معنى الشرط الذي تضمنته، وهو ما دعا بعض النحاة الى القول بزيادة الفاء في جواب (إذا)[٤] في قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر: ١ -٣]، فإنّما زيدت الفاء ليكون الكلام على صورة الشرط والجزاء.

وذكر الرضي(ت٦٨٨هـ) أنه جاز أن يكون جزاء (إذا) جملة اسمية بغير فاء مع كونها للشرط، لعدم عراقتها في الشرطية ورسوخها فيها[٥]، كما في قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [سورة الشورى: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾[سورة الشورى: ٣٩].

ولمعنى الشرط أجيبت (إذا) بالفاء- كما مرّ، وبالفعل مثل قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾[سورة الروم: ٣٦]، وأجيبت بـ(إذا) الفجائية، التي سيأتي الكلام عليها، كما في قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾[سورة يونس: ٢١].

٣. جملة الشرط وجوابه، في النص القرآني

فعل الشرط بعد(إذا) غالبا ما يكون ماضيا، وأحيانا يأتي بصيغة المضارع، أمّا الجواب فلا يخلو من أن يكون إما ماضيا، أو مضارعا، أو مقترنا بالفاء، أو مقترنا بـ(إذا) الفجائية، أو جملة اسمية أو محذوفا.

فمثال فعل الشرط والجواب بالماضي قوله سبحانه ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [سورة النحل: ٥٨]، وقوله ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾[سورة القصص ٥٥]، ومثال الفعل بالماضي والجواب بالمضارع قوله جلّ شأنه ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾[سورة المائدة: ٨٣]، وقوله ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سورة الاعراف: ٣٤]، [سورة النحل: ٦١]، ومثال الفعل بالمضارع والجواب بالمضارع قوله عز وجل ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ

(٤) ينظر: شرح الرضي: ٣/ ١٩٠.
(٥) ينظر: شرح الرضي: ٣/ ١٩١.

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ﴾[سورة الحج: ٧٢]، وقوله ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [سورة الاسراء: ١٠٧]، ومثال فعل الشرط بالمضارع وجوابه بالماضي قوله تعالى ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [سورة لقمان: ٨]، ومثال جواب الشرط المقترن بالفاء قوله سبحانه ﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾[سورة البقرة: ٢٨٢]، وقد ورد اقتران جواب(إذا) بالفاء بكثرة.

ومثال جوابها المقترن بـ(إذا) الفجائية قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ٦٤]، وقوله ﴿ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [سورة الروم: ٤٨].

وقد اجتمعت الفاء وإذا في الجواب في قوله جل شأنه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [سورة الانبياء: ٩٦ -٩٧].

وقد ذكر بعض النحاة أنّها أفادا معنى واحدا، وهو تأكيد وصل الجزاء[٦]، ولم يؤيد د. فاضل السامرائي إفادتهما معنى واحدا، بل جُمِعَ بينهما في الآية المذكورة لإرادة معنيي السبب والمفاجأة[٧].

والصحيح ما ذكره د.فاضل السامرائي؛ إذ إنّ النحاة منعوا اجتماع حرفين لمعنى واحد[٨].

ومثال الجملة الاسمية في جواب إذا- وهو قليل -قوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾[سورة الشورى: ٣٧]، وقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾[سورة الشورى: ٣٩].

وقد عدّها بعض النحويين في الآيتين المتقدّمتين ظرفا لما يستقبل من الزمان متجردة من معنى الشرط؛ لأن جوابها جملة اسمية غير مقترنة بالفاء[٩].

وما ذكروه ليس صحيحا، من جهتين: الأولى: أن الأصل في استعمال (إذا) هو ليس الشرط، فهي موضوعة للمقطوع

(٦) ينظر: التصريح: ٢/ ٢٥١.
(٧) ينظر: معاني النحو: ٤/ ٩٩.
(٨) ينظر: شرح ابن عقيل: ١/ ٣٣٣.
(٩) ينظر: مغني اللبيب: ١/ ١٠٠، البرهان: ٤/ ١٩٦.

بوقوعه وكثير الوقوع -كما بينت- والثانية: أنّ (هم) في الآية الاولى جاء تأكيدا لضمير الرفع(الواو)، وفي الآية الثانية جاء تأكيدا لضمير النصب (أصابهم).

ومثال جملة الشرط محذوفة الجواب قوله جل ذكره ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ ﴾[سورة المائدة: ١٠٦]، وقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٠]، فجواب الشرط في كلتا الآيتين محذوف يفسّره المتقدّم، ففي الأولى -التقدير -إذا حضر أحدكم الموت فشهادة أحدكم، وفي الثاني -التقدير -إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا كُتب.

وقد تأتي (إذا) غير متضمنة لمعنى الشرط، وهي في هذه الحال دالة على الزمان دون الشرط، ومنه قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾[سورة هود: ١٠٢]، وقوله ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴾[سورة الشورى: ٢٩]، وقوله ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴾[سورة النجم: ٤٥ -٤٦]، وقوله ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [سورة الليل: ١ -٢].

٤. العامل فيها في النصّ القرآني

تنصب(إذا) على الظرفية الزمانية، واختلف في ناصبها، فأكثر النحاة على أنه جزاؤه من فعل أو شبهه، وقال بعضهم هو شرطها[١٠].

والذي دعا أغلب النحويين إلى القول بأن العامل في (إذا) هو الجزاء من فعل أو شبهه هو أنّ إذا في الاستعمال ليست كـ(متى) التي هي مع شرطها ليست ككلمة واحدة، فيعمل في(متى) الشرط دون الجزاء لكونه الأقرب، أما (إذا) فإنّها غالبا ما تأتي على صورة الشرط والجزاء، وهي مضافة إلى الفعل الذي بعدها -كما سيأتي -فلا يعمل ما تضاف إليه فيها[١١]، ومن ذلك قوله تعالى ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ

(١٠) ينظر: شرح الرضي: ٣/ ١٨٩، الجنى الداني: ٣٦٨.

(١١) ينظر: شرح الرضي: ٣/ ١٨٨ـ١٩٠.

﴿ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[سورة النصر: ١ -٣]، فـ(إذا) هنا ظرف للتسبيح، أي: سبّح وقت المجيء وليست ظرفا لفعل الشرط، وكذلك قوله ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡ﴾[سورة المنافقون: ٤]، فالعامل هو الجواب، أي تعجبُك أجسامُهم وقْتَ رؤيتهم.

إلاّ إذا كانت (إذا) بمعنى (متى) فالعامل فيها جوابها.

وقد عدّ الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ) (إذا) في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا﴾[سورة الواقعة: ١ -٤]، عدّها في موضع الرفع؛ لكونها مبتدأ وخبرا، مخطئا ابن جني (ت ٣٩٢هـ)، الذي جعل (إذا وقعت) معمولا لقوله (إذا رجّت)[١٢].

وما ذهبا إليه كلاهما بعيد، إذ إنّ (إذا) الاولى إذا صلحت أن تكون في موضع الرفع على الابتداء -كما يرى الطبرسي- فلا ضرورة لأن تكون (إذا) الثانية خبرا عنها؛ لأن الأصلح أن تكون الجملة المنفية بـ(ليس) هي الخبر.

ولا تصلح (إذا رجّت) أن تكون عاملا في (إذا وقعت)، إذ لا تأثير للثانية في الاولى، فيكون بذلك رأي ابن جني أبعد من بعيد.

والأولى أن يكون العامل في(إذا) محذوفا يدلّ عليه السياق، والتقدير: ذُهِلَ الناس، وإنّما حذف لتهويله عند السامع، وقد ورد نظير هذا المعنى في قوله تعالى ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾[سورة الحج: ١ -٢].

فذُهْلُ الناسِ عند وقوع الواقعة واردٌ.

وللنحويين في العامل في قوله (إذا وقعت) مذاهب مختلفة[١٣]، ليس في ذكرها هنا من جدوى.

٥. لزوم إذا الإضافة، في النصّ القرآني لا تأتي(إذا) إلاّ مضافة إلى الجمل[١٤]،

(١٢) ينظر: مجمع البيان: ٩/ ٢١٤.

(١٣) ينظر: مجمع البيان: ٩/ ٢١٤.

(١٤) ينظر: المقتضب: ٢/ ٣٤٧، البسيط في شرح الجمل: ٢/ ٨٧.

وأكثر ما تضاف الى الجملة الفعلية وفي الآيات التي ذكرتها فيما تقدم غنًى عن ذكر غيرها لهذا المعنى.

لكنّ الذي أودّ بيانه هنا أن مجيء (ما) بعد(إذا) لا يكفها عن الإضافة إلى ما بعدها، وقد وردت (ما) بعد (إذا) في القرآن الكريم، وفي كلام العرب كثيرا، ومن ذلك قوله سبحانه ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾[سورة التوبة: ٩٢]، وقوله تعالى ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾[سورة التوبة: ١٢٤]، وقوله ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾[سورة التوبة: ١٢٧].

وإذا جاءت(ما) بعد (إذا) أضيفت إذا الى الجملة الفعلية التي فعلها ماضٍ دون غيرها؛ لأنّ (ما) تأكيد للكلام، والتأكيد بـ(ما) لا يصلح الا للماضي.

و(ما) هنا هي مثل(ما) المعترضة بين الجار والمجرور، كقوله تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[سورة آل عمران: ١٥٩]، وقوله ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [سورة المائدة: ١٣]، أي: أنّها لا تعلّق ما قبلها عن العمل فيما بعدها.

وأشار البصريون إلى أن (إذا) ملازمة للإضافة إلى الجملة الفعلية دون الاسمية[١٥]، و تأوّلوا في إضافتها الى الاسم أنّها أيضا مضافة إلى الجملة الفعلية؛ لأنّ هناك فعلا محذوفا مقدّرا يفسّره الظاهر الموجود بعد الاسم[١٦]، فإن كان الفعل المذكور مبنيا للمعلوم أعربوا الاسم الذي بعدها فاعلا لمحذوف يفسّره المذكور، وإن كان مبنيا للمجهول أعربوا الاسم نائب فاعل، ومن ذلك قوله تعالى﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾[سورة الانفطار: ١ -٤]، فالسماءُ والكواكِب عندهم فاعل لفعل محذوف مفسر، والبحار والقبور نائبُ فاعل.

وتضمن(إذا) معنى الشرط هو الذي ذهب بالنحويين إلى أن يقولوا

(١٥) ينظر: كتاب سيبويه: ٣/ ٩٠، شرح الاشموني: ٣/ ٦٥.

(١٦) ينظر: الأصول في النحو: ٢/ ١٤٣، أوضح المسالك: ١٥.

بإضافتها إلى الفعل[١٧].

أمّا الكوفيون فقد تركوا ما تأوّله نحاة البصرة، وذهبوا إلى أنّ (إذا) إذا وليها اسم فإنّها مضافة إلى الجملة الإسمية المتكونة من مبتدأ وخبر، أو مضافة إلى الاسم الذي هو فاعل للفعل الذي بعده[١٨]، فتكون(السماء) في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، إمّا مبتدأ والجملة الفعلية بعده خبر، أو فاعلا للفعل (انفطرت) المذكور.

وأقول: لا مانع من أن تكون (إذا) في مثل ما ذكر مضافة الى الاسم؛ لأن الفعل الذي بعده يستفاد منه معنى الشرط، ولا ضرورة حينئذ للتقدير الذي ذهب اليه البصريون، وإنما قدّم الاسم لعلة بلاغية.

ومن المناسب ذكره أيضا أن (إذا) لا يُجازى بها البتة؛ لأنها تدخل على المتيقّن وقوعه فتأتي وقتا معلوما، وما جاء للجزاء يقع على المشكوك ويكون مبهما[١٩].

قال سيبويه (ت ١٨٠ هـ)، نقلا عن الخليل(ت ١٧٥هـ) (فإذا فيما يستقبل بمنزلة (إذ) في ما مضى ويبين هذا أن (إذا تجيء وقتا معلوما، ألا ترى أنك لو قلت: آتيك إذا احمرّ البُسْرُ كان حسنا، ولو قلت: آتيك إن احمرّ البُسْرُ كان قبيحا، فـ(إن) أبدا مبهمة، وكذلك حروف الجزاء)[٢٠].

وذكر أنهم إنما جازوا بها في الشعر مضطرين[٢١]، ومن ذلك قول الشاعر[٢٢]:

إذا قصُرت أسيافُنا كانَ وصلُها

خُطانا إلى أعدائنا فنُضارِبُ

ومعنى الجزاء هنا أن قوله(فنضاربِ) مجزوم عطفا على جواب (إذا)، وهو ليس بشيء؛ لأن الشاعر اضطرّ لذلك من أجل القافية.

وإذا مبنية دائما، وإنّما بنيت لشبهها الحرف في افتقارها إلى ما بعدها من الجمل[٢٣].

(١٧) ينظر: المقتضب: ١/ ٣٤٧، المطالع السعيدة: ١/ ٤٢١.

(١٨) ينظر: الجنى الداني: ٣٦٨، شرح الأشموني: ٢/ ٣١٦.

(١٩) ينظر: كتاب سيبويه: ٣/ ٤٦، البرهان: ٤/ ١٩٩.

(٢٠) كتاب سيبويه: ٣/ ٤٦.

(٢١) كتاب سيبويه: ٣/ ٤٧.

(٢٢) ديوان قيس بن الخطيم الانصاري: ٤١.

(٢٣) ينظر: المفصل: ١٧١، شرح الرضي: ٣/ ١٦٨.

٦. (إذا) الفجائية، واستعمالاتها في القرآن الكريم

تأتي (إذا) للمفاجأة وهي غير متضمنة لمعنى الشرط، وتختصّ بالجملة الاسمية، ولا تقع في صدر الكلام، وتكون للحال[٢٤].

فهي إذن تختلف عن (إذا) المتضمنة لمعنى الشرط، التي تختص غالبا بالفعل، وتأتي في صدر الكلام، وتكون غالبا للاستقبال -كما تقدم.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [سورة طه: ٢٠]، وقوله ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ [سورة طه: ٦٦]، وقوله ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ [سورة الانبياء: ١٢].

واختلف فيها، فقال قوم إنها حرف، وقال آخرون إنها ظرف[٢٥].

وقد عدّها الأخفش(ت ٢١٥ هـ)، والمازني (٢٤٩ هـ) حرفا، وهي عند المبرّد(ت٢٨٥ هـ) ظرف مكان، وعند الزجاج(ت٣١١ هـ) ظرف زمان[٢٦].

وأجاز الأخفش في مثل: بينما يمشي فإذا زيد منطلق، أن تكون إذا حرف مفاجأة، أو ظرف زمان، بمعنى فوقت انطلاق زيد موجود[٢٧]، والرأي الثاني في قول الأخفش رفضه المازني بقوله(تكون إذا هاهنا حرف المفاجأة ولا تكون وقتا)[٢٨].

ومن مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين إعراب الجملة بعد (إذا) التي للمفاجأة، وهي ما عرفت بالمسألة الزنبورية التي حدثت بين الكسائي و(ت ١٨٩ هـ) وسيبويه، إذ جوّز الكسائي الرفع والنصب في الاسم الثاني بعد إذا في قولهم: كنت أظنّ أنّ العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي، أو فإذا هو إياها، ونحو: خرجت فإذا عبد الله القائمُ، أو القائمَ، رفع القائم على أنه خبر، ونصبه

(٢٤) ينظر: تسهيل الفوائد: ٩٤، أسرار النحو: ١٩٩.
(٢٥) ينظر: شرح الرضي: ٣/ ١٩٤، رصف المباني: ٦١ـ ٦٢، الانصاف: المسألة: ٩٩.
(٢٦) ينظر: المقتضب: ٣/ ١٨٥، مجالس العلماء: ٦٨ -٦٩، تسهيل الفوائد: ٩٤.
(٢٧) ينظر: مجالس العلماء: ٦٩، الاشباه والنظائر: ٣/ ٦٥ -٦٦.
(٢٨) مجالس العلماء: ٦٩.

على أنه مفعول ثانٍ، والتقدير: خرجت فوجدت زيدا القائمَ؛ لأن معنى مفاجأتك الشيء وجدانك له فجأةً[٢٩].

ولم يرتضِ سيبويه إلا الرفع؛ لأن إذا الفجائية يجب الابتداء بعدها، وتبعه على ذلك البصريون[٣٠].

فتقول: فإذا هو هي، وتقول: خرجت فإذا عبد الله القائمُ.

والصحيح في مثل هذا ما ذهب اليه سيبويه لسببين:

أمّا الأول: فلأنّ (إذا) هذه لم تأتِ في الذكر الحكيم إلا والجملة بعدها اسمية خبرها مذكور، ومنه قوله عز وجلّ ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [سورة الزمر: ٦٨]، وقوله ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [سورة النور: ٤٨]، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [سورة الصافات: ١٩]، وقوله تعالى ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [سورة يس: ٢٩]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة يس: ٧٧]، وغيرها كثير.

فالجمل الاسمية المذكورة بعد إذا تامة ولم يوجد فيها نظير ما ذكره الكسائي من منصوب.

والسبب الثاني: ان الكسائي إنما أجاز النصب؛ لأنه جعل إذا بمنزلة الفعل، بمعنى انه يجوز ان تقدّر في الآية ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الاعراف: ١٠٧]، ففجأتني، وتقدر في: فإذا زيد قائم، قام زيد قائم[٣١]، وهو بيّن البطلان.

وتأتي إذا الفجائية جوابا للشرط -كما تقدم- مثلما تأتي الفاء، الا انها تختلف عنها في أن إذا لا تدخل الا على جملة اسمية غير طلبية، وغير مقرونة بـ(إنّ) التوكيدية[٣٢]، نحو قوله تعالى ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [سورة الروم: ٣٦]، وقوله ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا

(٢٩) ينظر: الانصاف: المسألة٩٩، شرح الرضي: ٣/ ١٩٤.

(٣٠) ينظر: مجالس العلماء: ٩ -١٠، شرح الرضي: ٣/ ١٩٤ -١٩٥.

(٣١) ينظر: رصف المباني: ٦٢.

(٣٢) ينظر: رصف المباني: ٦٢، همع الهوامع: ٢/ ٦٠.

هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [سورة يونس: ٢٣]، وقوله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ٦٤]، وقوله: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [سورة النور: ٤٨].

وجاءت إذا الفجائية أيضا في جواب (بينا) في غير القرآن، ومن ذلك قول خرقة بنت النعمان بن المنذر[٣٣]:

فَبَيْنا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا

إذا نحن فيهم سُوقة نتنصّفُ

فإن عدّت إذا في جواب (بينا) وفي جواب (إذا) ظرف مكان -كما هو رأي المبرد -فالعامل فيها ما بعدها، وهي في مثل هذه الحال غير مضافة الى الجملة التي بعدها؛ لأن المكان لا يضاف الى الجملة إلا في (حيث)، وإن كانت ظرف زمان -كما يرى الزجاج -فتكون إذا حينئذ مضافة الى الجملة بعدها، وتكون اسما للزمان وليست ظرفا، ونعرب مبتدأ، و(بينا) خبرها، والأولى أن تكون حرفا يفيد المفاجأة، كما هو المشهور عند النحويين[٣٤].

ومن المفيد ذكره أن (إذا) الفجائية قد لا تكون واقعة في جواب الشرط، بل تدلّ على المفاجأة ليس غير، وذلك حين تسبقها الفاء، و(ثم)، ومنه قوله تعالى ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [سورة الاعراف: ١٠٧ ــ ١٠٨]، وقوله ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٦٨]، وقولُه ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [سورة الاعراف: ١١٧]، وغيرُه كَثيرٌ.

ومثال سبقها بـ(ثم) قوله تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [سورة الروم: ٢٠].

الخلاصة

ظهر من خلال البحث ما يأتي:

١. الأصل في استعمال (إذا) أن تكون ظرفا للمستقبل، غير أنها قد تأتي للدلالة على المضي، أو للدلالة على الحال.

٢. تختصّ (إذا) بالأحداث التي يقطع

(٣٣) ينظر: شرح الرضي: ٣/ ١٩٥.

(٣٤) ينظر: تسهيل الفوائد: ٩٤، شرح الرضي: ٣/ ١٩٩، رصف المباني: ٦١ــ ٦٢.

بوقوعها، وبالأحداث التي يكثر وقوعها.

٣. قد تخرج (إذا) عن الظرفية فتستعمل مفعولا به.

٤. تتضمن (إذا) معنى الشرط غالبا، مع انها موضوعة للأمر المقطوع بوقوعه؛ لكثرة دخول معنى الشرط فيها ولهذا جاز دخول الفاء في جوابها.

٥. قد تخلص (اذا) للظرف من دون أن تتضمن معنى الشرط.

٦. (إذا) مضافة دائما الى الجملة، وهي مبنية لشبهها الحرف في افتقارها للجملة بعدها.

٧. يجاب عن (إذا) المتضمنة للشرط بالفعل وبالفاء وبـ(إذا) الفجائية.

٨. هناك (إذا) دالة على المفاجأة، وهي غير متضمنة لمعنى الشرط وتختص بالجملة الاسمية دون الفعلية، ولا تقع في صدر الكلام وتكون للحال، وتعرب أما حرفا -وهو المشهور -أو ظرفا، وتقع في جواب إذا الشرطية، وفي جواب (لما)، وبينا، الا إذا سبقت بالفاء فإنها تدل على المفاجأة وحسب دون أن تكون جوابا للشرط.

المصادر

القرآن الكريم.

١. أسرار النحو، لابن كمال باشا (ت ٩٤٠هـ)، تحقيق أحمد حسن حامد، دار الفكر عمان.

٢. الاشباه والنظائر، السيوطي (ت ٩١١هـ)، تح طه عبد الرؤوف سعد، ١٩٧٥م.

٣. الأصول في النحو، لأبي بكر بن السراج، تح الدكتور عبد الحسين الفتلي، مطبعة النعمان ١٩٧٣م.

٤. الإنصاف في مسائل الخلاف، لأبي البركات الانباري، تح محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر بيروت.

٥. أوضح المسالك الى ألفية ابن مالك، لابن هشام الانصاري (٧٧٦ هـ)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ١٩٦٦م، بيروت.

٦. البرهان في علوم القرآن، الزركشي (٧٩٤هـ)، تح محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعرفة بيروت، ١٩٧٢م.

٧. البسيط في شرح جمل الزجاج، لابن أبي

الربيع (٦٨٨ هـ)، تح عباس الشتّي، دار المغرب الاسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

٨. تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لجمال الدين بن مالك (ت ٦٧٢ هـ) تح محمد كامل بركات دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م.

٩. الجنى الداني في حروف المعاني، للحسن بن قاسم المرادي (ت ٦٤٥هـ) تح طه محسن، مؤسسة دار الكتب، الموصل، ط١، ١٩٧٦م.

١٠. شرح ابن عقيل لبهاء، تح محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢م.

١١. شرح الاشموني على ألفية ابن مالك، لنور الدين الاشموني (٩٢٩هـ) تح محمد محي الدين عبد الحميد، ط٣، مصر.

١٢. شرح الرضي على الكافية، محمد بن الحسن الرضي الاستراباذي، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر.

١٣. شرح المفصل لأبي البقاء علي بن يعيش (٦٤٣هـ)، الطباعة المنيرية بمصر.

١٤. كتاب سيبويه، تح عبد السلام هارون، دار التاريخ بيروت.

١٥. مجالس العلماء، الزجاجي(٣٤٠هـ)، تح عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط٢.

١٦. مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي(ت ٥٤٨هـ)، دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٩ هـ.

١٧. المطالع السعيدة في شرح الفريدة، السيوطي، تح الدكتور نبهان ياسين، دار الرسالة بغداد، ط١، ١٩٧٧م.

١٨. معاني النحو، الدكتور فاضل صالح السامرائي، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر، بيروت ط ٢٠٠٧.

١٩. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الانصاري(٧٧٦ هـ)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد.

٢٠. المفصل في صنعة الاعراب لجار الله الزمخشري(ت ٥٣٨ هـ)، تح الدكتور علي بن ملحم، بيروت ط١، ١٩٩٣م.